مجلة أكاديمية الجبل للعلوم الاجتماعية والإنسانية

Al-Jabal Academy Journal of Social and Humanities

05 (01): 01-15, 2026

eISSN: 2958-5554; pISSN: 2958-5546

Journal Homepagehttps://lajak.edu.ly/journals/index.php/aajssh

نظرية الصرفة عند علماء الإعجاز
الخطابي والرماني والرازي أنموذجا
دراسة نقدية تحليلية

https://doi.org/10.58309/gs6a9397

ضياء الدين جمال حماد

قسم القراءات القرآنية، كلية القرآن الكريم وعلومه، جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية

المستخلص:

تتناول هذه الدراسة قضية "الصرفة" كواحدة من أبرز القضايا الجدلية في تراث إعجاز القرآن الكريم، وتأتي بهدف الكشف عن التأصيل المعرفي والموازنة النظرية لهذه القضية من خلال استقراء وتحليل مواقف ثلاثة من أئمة الفكر والبلاغة: الخطابي، والرماني، والفخر الرازي. واتبعت الدراسة المنهج التحليلي النقدي المقارن عبر تتبع نصوص الأئمة وفحص حججهم. وقد خلص البحث إلى نتائج متباينة تعكس ثراء الفكر النقدي؛ حيث وقف الإمام الخطابي موقف الرفض التام للصرفة، مستدلاً بآيات التحدي ومؤكداً أن الإعجاز كامن في ذات النظم القرآني الخارق للعادة. في حين تبنى الرماني القول بالصرفة كوجه من وجوه الإعجاز تعليلاً بصرف الهمم، مع قوله بإعجاز البلاغة. بينما نهج الفخر الرازي مسلكاً عقلياً صارماً فند فيه أبعاد الصرفة (عند النظام) من ثلاثة وجوه، مبرهناً أن دهشة البلغاء وعجزهم ينبعان من الفصاحة الذاتية للقرآن لا من سلب القدرة أو العلوم. وتوصي الدراسة بضرورة استمرار استنطاق النص التراثي وتعميق البحوث البلاغية المعاصرة لخدمة الإعجاز البياني

الكلمات المفتاحية:

الصرفة، علماء، الإعجاز، الخطابي، الرماني، الرماني.

The Theory of *Sarfah* According to Miraculousness (*I'jaz*) Scholars Al-Khattabi, Al-Rummani, and Al-Razi as a Case Study A Critical Analytical Study"

Diya al-Din Jamal Hammad

Sayyid Muhammad bin Ali al-Sanusi Islamic University – Faculty of the Holy Qur'an

KEYWORDS:

"Al-Sarfa, scholars, al-i'jaz (inimitability), Al-Khattabi, Al-Rummani."

A B S T R A C T:

This study addresses "Al-Sarfah" (Divine deflection) as a prominent controversy in Quranic inimitability (*I'jaz*) and investigates its impact. It aims to uncover the epistemological grounding and theoretical synthesis of this issue by analyzing the stances of three classical scholars: Al-Khattabi, Al-Rummani, and Fakhr al-Din al-Razi. The study adopts a critical analytical methodology to examine their texts and evaluate their arguments.The findings reflect the richness of Arabic critical thought through varied scholastic results. Al-Khattabi completely rejected *Al-Sarfah*, relying on the verses of challenge (*Ayat al-Tahaddi*) to assert that inimitability is intrinsic to the supernatural Quranic structural composition (*Al-Nazm*). Conversely, Al-Rummani embraced *Al-Sarfah* as a facet of *I'jaz*, attributing it to the deflection of human motives from undertaking opposition, while simultaneously maintaining that the Quran is inimitable in its eloquence and composition. Meanwhile, Fakhr al-Din al-Razi pursued a rigorous rational path, refuting Al-Nazzam's view of *Al-Sarfah* from three distinct angles; he proved that the awe and incapacity of Arab rhetoricians stemmed from the Quran's inherent eloquence, not from a deprivation of faculties or knowledge. The study recommends deepening research into classical heritage and critical issues like *Al-Sarfah* to further elucidate Quranic eloquence and compositional excellence.

المقدمة:

تعد قضية الصرفة من أكثر القضايا إثارة للخلاف عند علماء الإعجاز والبلاغة الأوائل، وكذلك النقاد، فقد أحدث النظام ضجة نقدية تلقاها بعض العلماء بالقبول وبرز في هذا السياق علماء أنصفوا إعجاز القرآن وبلاغته، فدحضوا هذه الشبهة بحجج عقلية ونقلية خدمة لبلاغة القرآن الكريم، وفي جانب آخر قرر بعض علماء الإعجاز كالرماني القول بالصرفة، لكن ليس من جميع الوجوه.

ورغم اتفاق بعض العلماء في دحض شبهة الصرفة إلا أن البواعث اختلفت باختلاف منهجية تناولها لكل منهم. تأتي هذه الدراسة لتبحث عن دوافع الاختلاف وآرائهم في دحض الشبهة من وجوه عدة.

فقد عرف المخاطبون بالقرآن بشدة الحمية، والأنفة، وإباء الضيم، وهي صفات تمنعهم من قبول الهزيمة دون محاولة المعارضة لبلاغة القرآن، فقد كانت الفصاحة والمساجلة في ميادين الكلام هي الصنعة الأولى للعرب، ومحط تفاخرهم، وميدان تنافسهم الأساسي لتقريع الخصوم، فقد شن القرآن حرباً على موروثاتهم، وسفّه عقولهم وعقائدهم، ونعى عليهم الشرك، مما شكّل دافعاً انتقامياً لإبطال دعوته بالمعارضة البيانية لو ملكوا إليها سبيلاً، فالمراد بالصرفة لا يخرج عن ثلاثة معان، إما أن بواعث القرآن ودواعيها لم تتوافر لدى العرب، أو أن صارفا عن معارضة القرآن زهد الناس فيها، أو أن الله تعالى منع الناس عنوة عن معارضة القرآن مع كونهم قادرين عليها.

أهداف الدراسة: تهدف الدراسة إلى:

1- تقديم بحث موجز من خلال عرض آرائهم في هذه القضية، ومقارنتها.

2- بيان أهم دوافعهم في دحض هذه الشبهة، والأسباب التي أدت إلى رد القول بها.

أسباب اختيار الموضوع:

1- الرغبة في توفير الطرق الواضحة لدراسة القضايا النقدية المتعلقة ببلاغة القرآن ، عن طريق العرض والردود.

2- ارتباط هؤلاء العلماء بإعجاز القرآن الكريم، وما أحدثه بعض علماء الإعجاز من ضجة في تبنيهم القول بالصرفة وثمرة هذا الخلاف مما ساعد في البحث والتنقيح في مدى صحتها.

3- الإلمام بشيء من ردود بعض علماء البلاغة والإعجاز، وموقفهم من الصرفة خدمة لبلاغة القرآن.

أهمية الدراسة:

1- ترجع أهمية البحث إلى أهمية القضية المدروسة والتي لها علاقة واضحة بكلام الله وسر إعجازه.

2- تيسير الوصول إلى مجموع كلام علماء البلاغة في الموضوع الواحد.

3- تسليط الضوء على هذه القضية المهمة والوصول إلى أحسن طرق العرض .

4- قضية الصرفة من أهم القضايا التي تدور في فلك الدراسات النقدية، وكذلك البلاغية ومعلوم مركزيتها في التراث العربي.

الدراسات السابقة:

1- موقف المتكلمين من الصرفة، إعداد د. محمد أحمد بخيت عبد ربه، مجلة كلية الدراسات الإسلامية بنات- دمنهور- العدد الثالث- المجلد الأول 2018م.

2- الإعجاز القرآني وتجليات فكرة الصرفة في الدراسات القرآنية، د. طارق زيناي – مجلة المعيار- المجلد 25 – العدد 56 – 2021م.

تساؤلات الدراسة:

1- هل يمكن إنتاج منهج نقدي واضح من خلال عرض الآراء الدائرة من ثمرة الخلاف؟

2- ما جدوى استنطاق التراث العربي من خلال الإلمام بالقضايا النقدية؟

3- هل هناك فروق حادة بين منهج النقاد، أم كلها تصب وتدور حول منهج واحد؟

المنهج المتبع:

سأنهج في هذه الدراسة المنهج التحليلي النقدي، وذلك بجمع أهم النصوص في إبطال الصرفة، والنصوص التي ذكرها الخطابي والرماني والرازي، وبيان آرائهم وموقفهم من الصرفة، واختصار فحوى كلامهم، بما يؤديني إليه نظري؛ لاجتباء الأنسب واطراح ما عداه.

خطة البحث:

مقدمة: وقد تقدمت.

المبحث الأول: التعريف بالخطابي والرماني والرازي، تفسير معنى الصرفة وبواعثها:

المطلب الأول : التعريف بالخطابي والرماني والرزي.

المطلب الثاني: تفسير معنى الصرفة وبواعثها.

المبحث الثاني: التأصيل المعرفي والموازنة النظرية للصرفة:

المطلب الأول: إبطال القول بالصرفة.

المطلب الثاني: الصرفة بين الخطابي والرماني والرازي.

الخاتمة: وفيها أهم ما توصل إليه البحث عن طريق المقارنة بين منهجهم في تناولهم للصرفة.

المبحث الأول: التعريف بالخطابي والرماني والرازي، تفسير معنى الصرفة وبواعثها:

المطلب الأول: التعريف بالخطابي والرماني والرازي:

التعريف بالإمام الخطابي:

هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي؛ كان فقيهاً أديباً محدثاً ، مولده في رجب سنة تسع عشرة وثلاثمائة، ومات بست سنة ثمان وثمانين. وقيل. يوم السبت سادس ربيع الآخر سنة ست وثمانين.

قال الثعالبي في اليتيمة: كان يشبه في زمانه بأبي عبيد القاسم بن سلام.

وقال السمعاني: كان حجة صدوقا، رحل إلى العراق والحجاز وجال خراسان، وخرج إلى ما وراء النهر، وتفقه بالقفال الشاشي، وغيره. وأخذ الأدب عن أبي عمر الزاهد وإسماعيل الصفار، وألف في فنون.

البديعة منها " غريب الحديث " و " معالم السنن في شرح سنن أبي داود " و " أعلام السنن في شرح البخاري " وكتاب " الشحاح " وكتاب " شأن الدعاء " وكتاب " إصلاح غلط المحدثين " وغير ذلك[1].

التعريف بالإمام الرماني:

هو أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني النحوي المتكلم؛ أحد الأئمة المشاهير، جمع بين علم الكلام والعربية، وله تفسير القرآن الكريم، أخذ الأدب عن أبي بكر ابن دريد وأبي بكر ابن السراج، وروى عنه أبو القاسم التنوخي، وأبو محمد الجوهري وغيرهما، وكانت ولادته ببغداد سنة ست وتسعين ومائتين، وتوفي ليلة الأحد حادي عشر جمادى الأولى سنة أربع وثمانين، وقيل اثنتين وثمانين وثلاثمائة، كان يعرف أيضا بالإخشيدي وبالوراق، وهو بالرماني أشهر؛ كان إماما في العربية، علامة في الأدب في طبقة الفارسي والسيرافي، معتزليا، ولد سنة ست وسبعين ومائتين، وأخذ عن الزجاج وابن السراج وابن دريد.

قال أبو حيان التوحيدي: لم ير مثله قط علما بالنحو وغزارة بالكلام، وبصرا بالمقالات، واستخراجا للعويص، وإيضاحا للمشكل، مع تأله وتنزه ودين وفصاحة، وعفاف ونظافة؛ وكان يمزج النحو بالمنطق؛ حتى قال الفارسي: إن كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء، وإن كان النحو ما نقوله نحن فليس معه منه شيء[2].

التعريف بفخر الدين الرازي:

فخر الدين الرازي هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري الطبرستاني الأصل الرازي المولد، الملقب فخر الدين، المعروف بابن الخطيب، الفقيه الشافعي، فريد عصره ونسيج وحده، فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل، له التصانيف المفيدة في فنون عديدة منها تفسير القرآن الكريم المسمى مفاتيح الغيب جمع فيه كل غريب وغريبة، وهو كبير جدا لكنه لم يكمله، وشرح سورة الفاتحة في مجلد، وله أساس التقديس وهي رسالة في التوحيد، والمطالب العالية في علم الكلام، و المحصول في علم الأصول و نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز في البلاغة، ويقال: إن له شرح المفصل في النحو للزمخشري، وشرح سقط الزند للمعري، وله مختصر في الإعجاز، ومؤاخذات جيدة على النحاة، وله طريقة في الخلاف. كانت ولادة فخر الدين في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة أربع وأربعين، وقيل ثلاث وأربعين وخمسمائة، بالري. وتوفي يوم الاثنين، وكان عيد الفطر، سنة ست وستمائة بمدينة هراة[3].

المطلب الثاني: تفسير معنى الصرفة وبواعثها:

الصرف: رد الشيء عن وجهه، صرفه يصرفه صرفا فانصرف. وصارف نفسه عن الشيء: صرفها عنه. وقوله تعالى **{ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم }** أي رجعوا عن المكان الذي استمعوا فيه، وقيل: انصرفوا عن العمل بشيء مما سمعوا. صرف الله قلوبهم، أي أضلهم الله مجازاة على فعلهم؛ وصرفت الرجل عني فانصرف، والمنصرف: قد يكون مكانا وقد يكون مصدرا، وقوله عز وجل: **{ سَأَصْرِفُ عَن ءاياتي }** أي أجعل جزاءهم الإضلال عن هداية آياتي. وقوله عز وجل: **{ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً }** أي ما يستطيعون أن يصرفوا عن أنفسهم العذاب ولا أن ينصروا أنفسهم. قال يونس: الصرف الحيلة، وصرفت الصبيان: قلبتهم. وصرف الله عنك الأذى، واستصرفت الله المكاره. وصرف الشيء: أعمله في غير وجه كأنه يصرفه عن وجه إلى وجه، وتصاريف الأمور: تخاليفها، ومنه تصاريف الرياح والسحاب. قال الليث: تصريف الرياح صرفها من جهة إلى جهة، وكذلك تصريف السيول والخيول والأمور والآيات، وتصريف الرياح: جعلها جنوبا وشمالا وصبا ودبورا فجعلها ضروبا في أجناسها.[4]

قال فهد الرومي: "القول بالصرفة هو الباعث على نشأة البحث في وجوه الإعجاز للقرآن الكريم، فقد كان المسلمون مُسلِّمين بإعجاز القرآن وألفوا في ذلك كتبًا تشير بصورة غير مباشرة إلى إعجاز القرآن من غير أن يخوضوا أو يتعمقوا في بيان وجهه، حتى أظهر النظام "ت231هـ" مقولته بالصرفة فثار العلماء لإنكار قوله والرد عليه، ومن ثم تحديد الوجه أو أوجه الإعجاز الصحيحة في القرآن الكريم."[5]

وأول من قال إن إعجاز القرآن الكريم كان بالصرفة هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام "ت231هـ" أحد أئمة المعتزلة، وصار له مذهب خاص ينسب إليه، وقلده آخرون في هذه المقولة وتشعب القول فيها إلى شعبتين:

القول الأول:

للنظام وآخرين، أن المراد بالصرفة أن الله صرف العرب عن الاهتمام بمعارضة القرآن الكريم مع قدرتهم عليها، ولو توجهوا إليها لقدروا على الإتيان بمثل هذا القرآن.

والقول الثاني:

للمرتضى من الرافضة، ومراده بالصرفة أن الله سلب العرب العلوم التي يحتاجون إليها للإتيان بمثل هذا القرآن، ولو توجهوا للإتيان بمثله لما استطاعوا، لسلبهم هذه العلوم.

والفرق بين رأي النظام وأتباعه والمرتضى ومن معه أن النظام يرى أن العرب لو أرادوا الإتيان بمثله لاستطاعوا ولكن همتهم لم تتوجه لذلك، أما المرتضى فيرى أن العرب لا يستطيعون الإتيان بمثله ولو أرادو ذلك؛ لأنهم لا يملكون العلوم التي تمكنهم من ذلك، فالفرق

بينهما أن النظام يرى أن العرب يستطيعون لو أرادوا والمرتضى يرى عدم استطاعتهم، وكلا القولين غير صحيح."[6]

قال الماوردي: ومعنى الصرفة الاصطلاحي "أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحديهم أن يأتوا بسورة من مثله، فلم تحركهم أنفة التحدي، فصبروا على نقص العجز، فلم يعارضوه، وهم فصحاء العرب مع توفر دواعيهم على إبطاله، وبذل نفوسهم في قتاله، فصار بذلك معجزا لخروجه عن العادة كخروج سائر المعجزات عنها"[7]

قال صاحب الطراز: "وهذا هو رأى أبى إسحاق النظام، وأبى إسحاق النصيبى، من المعتزلة واختاره الشريف المرتضى ، واعلم أن قول أهل الصرفة يمكن أن يكون له تفسيرات ثلاثة، لما فيه من الإجمال وكثرة الاحتمال كما سنوضحه:

التفسير الأول: أن يريدوا بالصرفة أن الله تعالى سلب دواعيهم إلى المعارضة، مع أن أسباب توفر الدواعي في حقهم حاصلة من التقريع لهم بالعجز، والاستنزال عن المراتب العالية، والتكليف بالانقياد والخضوع، ومخالفة الأهواء.

التفسير الثاني: أن يريدوا بالصرفة أن الله تعالى سلبهم العلوم التي لا بد منها في الإتيان بما يشاكل القرآن ويقاربه، ثم إن سلب العلوم يمكن تنزيله على وجهين: أحدهما أن يقال: إن تلك العلوم كانت حاصلة لهم على جهة الاستمرار، لكن الله تعالى أزالها عن أفئدتهم ومحاها عنهم، وثانيهما أن يقال: إن تلك العلوم ما كانت حاصلة لهم، ولكن الله تعالى صرف دواعيهم من تجديدها، مخافة أن تحصل المعارضة"[8]

المبحث الثاني: التأصيل المعرفي والموازنة النظرية للصرفة:

المطلب الأول: إبطال القول بالصرفة:

بدأ القول بالصرفة عند المعتزلة، وعلى رأسهم النظام، وذلك في أواخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجريين وقرروا أن العرب في مقدورهم النسج على منوال القرآن، والإتيان ببلاغة كبلاغته وتأليف كتأليفه، وأن صارفا صرف الناس عن معارضة القرآن وزهد الناس في هذه المعارضة، أو أن الله تعالى منع الناس قسرا عن معارضة القرآن مع كونهم قادرين على هذه المعارضة فلا تخرج الصرفة عن هذه المعاني الثلاثة[9] وقد رد كثير من العلماء وأبطلوا القول بالصرفة، وما جاء به النظام، يقول الزرقاني: أن هذا القول لا يتفق مع الواقع؛ لأسباب:

أن ما سجل التاريخ وأثبت التواتر من أن دواعي المعارضة كانت قائمة موفورة ودوافعها كانت مائلة متآخذة، وذلك لأدلة كثيرة:

منها أن القرآن تحداهم غير مرة أن يأتوا ولو بمثل أقصر سورة منه ثم سجل العجز عليهم وقال بلغة واثقة إنهم لا يستطيعوا أن يفعلوا ولن يفعلوا ولو ظاهرهم الإنس والجن، فكيف لا تثور حميتهم إلى المعارضة بعد هذا ولو كانوا أجبن خلق الله؟

ومنها أن العرب الذين تحداهم القرآن كانوا مضرب المثل في الحمية والأنفة وإباء الضيم فكيف لا يحركهم هذا التحدي والاستفزاز؟

ومنها أن صناعتهم البيان والتنافس في ميادين الكلام فكيف لا يطيرون بعد هذه الصيحة إلى حلبة المساجلة؟

ومنها أن القرآن أثار حفائظهم وسفه عقولهم وعقول آبائهم ونعى عليهم الجمود والجهالة والشرك فكيف يسكتون بعد هذا التقريع والتشنيع بالعجز؟

ومنها أن القرآن أقام حربا شعواء على أعز شيء لديهم وهي عقائدهم المتغلغلة فيهم وعوائدهم المتمكنة منهم، فأي شيء يلهب المشاعر ويحرك الهمم إلى المساجلة أكثر من هذا ما دامت هذه المساجلة هي السبيل المتعين لإسكات خصمهم لو استطاعوا[10].

قال ابن كثير في تفسير: "وقد قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة في الصوفية، فقال: إن كان هذا القرآن معجزًا في نفسه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله ولا في قواهم معارضته، فقد حصل المدعى وهو المطلوب، وإن كان في إمكانهم معارضته بمثله ولم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له، كان ذلك دليلا على أنه من عند الله؛ لصرفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك، وهذه الطريقة وإن لم تكن مرضية لأن القرآن

في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته، كما قررنا، إلا أنها تصلح على سبيل التنزل والمجادلة والمنافحة عن الحق"[11].

قال صاحب الطراز: "لو كان الوجه في إعجازه هو الصرفة كما زعموه، لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن، فلما ظهر منهم التعجب لبلاغته وحسن فصاحته، كما أثر عن الوليد بن المغيرة حيث قال: إن أعلاه لمورق وإن أسفله لمغدق، وإن له لطلاوة وإن عليه لحلاوة، فإن المعلوم من حال كل بليغ وفصيح سمع القرآن يتلى عليه فإنه يدهش عقله ويحير لبه، وما ذاك إلا لما قرع مسامعهم من لطيف التأليف، وحسن مواقع التصريف في كل موعظة، وحكاية كل قصة، فلو كان كما زعموه من الصرفة، لكان العجب من غير ذلك"[12].

قال فهد الرومي: " كيف يصح القول أن همتهم لم تتجه للإتيان بمثل القرآن وهم الذين لم يتركوا سبيلًا للقضاء على دعوة محمد –صلى الله عليه وسلم– وسلكوا كل طريق شاق، حاربوه، وناوءوه، وقاطعوه، وآذوه مع إبطاله لمعتقداتهم، وإثارته لحفيظتهم، واستفزازه لمشاعرهم، وإلهابه لغيرتهم، وأصاب موضع عزتهم وفخارهم، وقد مكنهم من نفسه لو استطاعوا، فدعاهم وتحداهم أن يأتوا بمثل سورة من القرآن ولو كان فيهم أدنى قدرة، أو عرفوا أحدًا يملكها في أقصى الأرض لبعثوا إليه كما بعثوا لليهود يسألونهم عما يسألون محمدًا –صلى الله عليه وسلم– عنه ليحرجوه، فلا يصح بعد هذا أن يقال إن همتهم لم تتجه للإتيان بمثله."[13]

المطلب الثاني: الصرفة بين الخطابي والرماني والرازي:

يرى الخطابي أن القول بالصرفة يبطل بلاغة وإعجاز القرآن، فالإعجاز عنده يكون في النظم، والقرآن خارج عن قدرة البشر، يقول: " وذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه الصرفة ، أي صرف الهمم عن المعارضة ، وإن كانت مقدورًا عليها ، وغير معجزة عنها؛ إلا أن العائق من حيث كان أمرًا خارجًا عن مجاري العادات صار كسائر المعجزات، فقالوا: ولو كان الله عز وجل بعث نبيًّا في زمان النبوات ، وجعل معجزته في تحريك يد أَو مد رجل في وقت قعوده بين ظهراني قومه ، ثم قيل له: ما آيتك؟ فقال آيتي أَن أحرِّك يدي أَو أَمد رجلي ، ولا يمكن أَحدًا منكم أن يفعل مثل فعلي ، والقوم أصحاء الأَبدان لا آفة بشيءٍ من جوارحهم، فحرك يده أَو مد رجله ، فراموا أَن يفعلوا مثل فعله فلم يقدروا عليه ، كان ذلك آية دالة على صدقه"[14].

أورد الخطابي هذا المثال الحسي الذي استشهد به أصحاب الصرفة ، وقولهم بأن الصرفة من وجوه الإعجاز، لكن دلالة الآية تشهد بخلافه، فقرر أن القرآن نزل على قوم فصحاء، ولا غرو في ذلك، لكن العرب غير قادرين على اختيار الأفضل والأحسن من وجوه النظوم، يقول شارح الرسالة: " والعرب لم يصرفوا عن القرآن، بل جاهروا بقدرتهم على الإتيان بمثله، فقالوا

كما روى القرآن عنهم: **{ قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ }** والنبي تحدى العرب بما يتقنون وهو الفصاحة والبيان، فهو يقول لهم: القرآن من جنس كلامكم، وأنتم لا تستطيعون مجاراته، لأنه أعجزكم، ولم يقل لهم النبي أن الله سوف يصرفكم عنه، وإنما تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله"[15]

يقول الخطابي: "وليس ينظر في المعجزة إلى عظم حجم ما يأتي به النبي ولا إلى فخامة منظره، وإنما تعتبر صحتها بأَن تكون أمرًا خارجًا عن مجاري العادات ناقضًا لها ، فمهما كانت بهذا الوصف كانت آية دالة على صدق من جاءَ بها ، وهذا أيضًا وجه قريب ، إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافه وهي قوله سبحانه: **{ قُل لَئِن اجتمعتِ الإِنْسُ والجنُّ عَلَى أَنْ يأتوا بِمِثْلِ هذا القُرآنِ لا يأتون بمثلِهِ ولَوْ كانَ بعضُهَمْ لبعْضٍ ظَهِيرًا}** ، فأشار في ذلك إلى أَمر طريقه التكلف والاجتهاد ، وسبيله التأَهب والاحتشاد. والمعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة، فدل على أن المراد غيرها، والله أعلم"[16]

وهنا أبطل الخطابي القول بالصرفة، وقرر أن القرآن ناقض لعادتهم، فلا مجال للصرفة، وقد خرج القرآن عن قدرة البشر في معارضته والإتيان بمثله، واستدل بآيات التحدي، فلو كانت الصرفة وجها من وجوه الإعجاز ، فلا يستقيم معنى التحدي والقول بالصرفة معا، قال عرفة بن الطنطاوي: " رد الخطابي القول بالصرفة بعد أن بين معناها ووضح مقصودها عند القائلين بها، وقد نقضها بحجية آية التحدي في الإسراء، ومع ذلك فإن القائلين بها استدلوا بالآية نفسها مع أنها حجة عليهم لا لهم، والخطابي عندما استدل بهذه الآية التي هي عمدة في الاستدلال، أشار إلى أنها واضحة المعاني والدلالة، لا تحتاج للتأويل"[17]

وخلاصة القول: أن الخطابي لا يرتضي القول بالصرفة ، وإن كان قد جاء بمثال حسي لما قرروه، وقد أبطلها بآيات التحدي ، وقاس معجزة التحدي ونقض العادة مقارنة بالصرفة، وبين الفرق بين هذه المعجزة التي تدحض الصرفة، وبين أن الله تعالى لو أراد الصرفة لبطلت معجزة التحدي ونقض العادة، بخلاف الرماني الذي يرى أنها وجه من وجوه الإعجاز التي تظهر للعقول، يقول: وأما الصرفة فهي صرف الهمم عن المعارضة ، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة؛ وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة ، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول[18].

ولم يتناول الرماني الصرفة كما تناولها الخطابي من إيراد أقوالهم وحججهم والرد عليها، أو تأييدها وتقرير الحجج العقلية في ذلك، وإنما اكتفى ببيان أنها وجه من وجوه الإعجاز، كنقض العادة والتحدي، والإخبار عن الغيبيات، ولم يفصل القول فيها، وإيراد العلة في أنها وجه من

وجوه الإعجاز، وقد أثبت أن القرآن معجز ببلاغته وحسن نظمه وتأليفه، وأنه وجه أصيل من وجوه الإعجاز عنده، وهذا القول يتناقض كليا مع القول بالصرفة، فإذا كان الرماني قد قرر القول بالصرفة، وجعلها من وجوه إعجاز القرآن عنده، فما الذي جعله يقرر أن القرآن معجز ببلاغته، وهم يستطيعون أن يأتوا ببلاغة كبلاغة القرآن، ولكنهم صرفوا عن معارضته، فقد نقض الرماني نفسه من هذا الوجه، وهو لا يتفق مع النظام الذي جعل الصرفة وجها من وجوه الإعجاز دون البلاغة، وإنما يتفق مع الجاحظ في كون القرآن معجز ببلاغته أيضا، يقول: وهذا عندنا وجه من وجوه الإعجاز التي تظهر للعقول[19].

وقد رد العلماء كالخطابي وغيره كما مر بنا، وسيأتي أن الرازي ينقض القول بها من وجوه ثلاثة، ولعل أهم دافع جعل الرماني يقول هذا القول هو دافع الاعتزال، فأغلب المعتزلة كالنظام وتلميذه الجاحظ قد تبنوا هذا القول، على أن الزمخشري وهو من هو في الاعتزال، قد رد هذا القول، وأنصف بلاغة لقرآن الكريم ، إذ يقول: " ودع عنك حديث الصرفة، فما الصرفة إلا صفرة من النظام وفهّة منه – أي سقطة – في الإسلام، ولو صح ما قاله لوجب في حكمة الله البالغة، وحجته الدامغة، أن ينزل – أي القرآن – على أركّ نمط وأنزله، وأفسل أسلوب وأسفله، وأعراه عن حلل البلاغة وحليّها"[20]

وبمنهج آخر أورد الرازي وجوه إعجاز القرآن، ومنها الصرفة، وقد نقل قول النظام فيها، وفنده من وجوه ثلاثة ، وقرر أن العرب تحدوا إلى معارضته فلم يأتوا بها يقول: " قال النظام: إن الله تعالى ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة، بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام، والعرب إنما لم يعارضوه؛ لأن الله صرفهم على ذلك وسلب علومهم به. ويدل على فساد ذلك وجوه ثلاثة:

الأول: أن عجز العرب عن المعارضة لو كان أن الله أعجزهم عنها بعد أن كانوا قادرين عليها لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن بل يجب أن يكون تعجبهم من تعذر ذلك عليهم بعد أن كان مقدوراً عليه لهم.

الثاني: وهو أنه لو كان كلامهم مقارباً في الفصاحة قبل التحدي لفصاحة القرآن لوجب أن يعارضوه بذلك.

الثالث: أن نسيان الصيغ المعلومة في مدة يسيرة يدل على زوال العقل، ومعلوم أن العرب ما زالت عقولهم بعد التحدي، فبطل ما قاله النظام"[21]

الخاتمة:

ركز الخطابي على وجه التحدي وعدم المعارضة في إبطال الصرفة، وقرر بأن آيات التحدي تشير إلى التكلف وعدم القدرة، وهو يتناقض مع القول بالصرفة، وقد استدل بالنص القرآني، وقدمه على أي نص آخر، وفسر المراد بآيات التحدي وبين أن صحة المعجزة تثبت بكونها أمراً خارقاً للعادة وناقضاً لها، وليس بعظم حجمها أو فخامة أمرها ، فقد بين الخطابي والرازي آيات التحدي، وربطها بواقع العرب وعجزهم عن معارضته، وتظهر ثمرة استنطاق التراث النقدي والقضايا النقدية –ومنها قضية الصرفة– أنها عمقت البحث في إعجاز القرآن وبلاغته وحسن تأليفه، وأيضا كان هناك فروق حادة ومتباينة في تناولهم لهذه القضية.

فرغم أن الرماني جعلها وجها من وجوه الإعجاز؛ إلا أنه لم يبين أسباب ذلك، وقد اعتبر أن صرف الهمم عن معارضة القرآن مع توفر الداعي هو من نقض العادة، بينما نرى الرازي يركز على عدم قدرتهم على معارضته، وإبطال ما جاء به النظام من عدة وجوه، فالخطابي يرى أن نظم القرآن تقصر عنه عقول البشر في الإتيان بمثله، بينما يرى الرماني أنهم قادرون لفصاحتهم، لكن الله صرف هممهم عن معارضته، ولا يقدح ذلك ببلاغة القرآن وإعجاز تأليفه كما قرر، بينما أبطل الرازي الصرفة بالحجج، ورد على ما قرره النظام لإفحام القائلين بها، فقرر أن تعجب البلغاء ودهشتهم كانت من ذات فصاحة القرآن وبيانه، ولو كان المنع بالصرفة لكان تعجبهم من سلب قدرتهم المفاجئة لا من جمال النظم، ولو كان كلام العرب قبل التحدي يقارب القرآن في الفصاحة؛ لتمكنوا من معارضته باستخدام بلاغتهم المعتادة لإبطاله، وقرر الرازي أن القول بسلب علوم العرب ونسيانهم لأساليب البيان في مدة وجيزة يقتضي زوال عقولهم، وهو ما ينفيه الواقع التاريخي؛ إذ ظلوا بكامل وعيهم وقدراتهم البلاغية ، والصرفة عند الرماني وجه عقلي، لا يتنافى عنده مع القول بإعجاز القرآن؛ لأنه جعل مدار الإعجاز في رسالته على البلاغة، فدهشة كفار قريش واستعظامهم لفصاحة القرآن وبلاغته –كما أُثر عن الوليد بن المغيرة– دليل قاطع على أن الإعجاز كامن في ذات النظم القرآني ولطيف تأليفه وحسن تصريفه، وليس في صرف الهمم عنه؛ إذ لو كانت الصرفة هي المانع، لما تحيرت عقولهم من جمال بيانه، كذلك شدة عداء المشركين للدعوة الإسلامية وتجشمهم مشاق الحرب والمقاطعة، يقطع بتوفر أعلى درجات الهمة والدوافع لديهم لإبطال التحدي ومحاكاة القرآن لو كانوا قادرين، غير أن عجزهم التام مع قيام التحدي، يثبت أن العجز ذاتي لقصور قدرتهم أمام إعجاز القرآن، لا لصرف هممهم.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

- إعجاز سورة الكوثر، للزمخشري، تحقيق: حامد الخفاف، دار البلاغة، الطبعة الأولى 1991م.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية – لبنان / صيدا.
- تفسير الماوردي ، النكت والعيون، المؤلف: لأبي الحسن البغدادي الشهير بالماوردي تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان ج1، ص33.
- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، بيان إعجاز القرآن للخطابي، والنكت في إعجاز القرآن للرماني، والرسالة الشافية للجرجاني ، حققها وعلق عليها محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، الطبعة: الثالثة، 1976م
- جنى الخرفة في إبطال القول بالصرفة، لعرفة بن طنطاوي، بحث منشور في مجلة البحوث الإسلامية المصرية، العدد 60، 1446.
- شرح رسالة بيان إعجاز القرآن للخطابي، عمر محمد باحاذق، دار المأمون للتراث، المدينة المنورة 1995.
- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، ليحيى بن حمزة العلوي، المكتبة العصرية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1423 هـ.
- المدخل إلى علم إعجاز القرآن، لمحمد بن عبد العزيز العواجي، دار وقف أصول الشاطبية للنشر، الطبعة الأولى– 2022م.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، المؤلف: محمد عبد العظيم الزُّرْقاني ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، الطبعة: الطبعة الثالثة.
- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين الرازي، تحقي نصر الله حاجي مفتي، دار صادر، بيروت، 2004.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت.
- دراسات في علوم القرآن، لفهد الرومي، الطبعة الثانية عشرة 1424هـ – 2003م.
- تفسير ابن كثير الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة، الثانية 1420هـ – 1999 م.

الهوامش

(1) وفيات الأعيان لابن خلكان، 214/2، وبغية الوعاة للسيوطي، 547/1.

(2) وفيات الأعيان لابن خلكان، 299/3، وبغية الوعاة للسيوطي، 281/2.

(3) وفيات الأعيان لابن خلكان، 284/4-249-252، والأعلام للزركلي، 313/6.

(4) لسان العرب، لابن منظور، 189/9، مادة: صرف.

(5) دراسات في علوم القرآن، لفهد الرومي، ص273.

(6) دراسات في علوم القرآن، لفهد الرومي، ص274.

(7) تفسير الماوردي = النكت والعيون، 33/1.

(8) الطراز، ليحيى بن حمزة العلوي، 218/3.

(9) مناهل العرفان، للزرقاني، 414/2، وينظر: المدخل إلى علم إعجاز القرآن، لمحمد العواجي، ص47.

(10) مناهل العرفان، للزرقاني، 415/2.

(11) تفسير ابن كثير، 201/1.

(12) الطراز، ليحيى العلوي، 219/3.

(13) دراسات في علوم القرآن، لفهد الرومي، ص275.

(14) بيان إعجاز القرآن، للخطابي، ص22.

(15) شرح رسالة بيان إعجاز القرآن، لعمر باحاذق، ص 35 -37.

(16) بيان إعجاز القرآن، للخطابي، ص23.

(17) جنى الخرفة في إبطال القول بالصرفة، لعرفة بن طنطاوي، مجلة البحوث الإسلامية، العدد 1446/60.

(18) النكت في إعجاز القرآن للرماني، ص110.

(19) المصدر نفسه، ص110.

(20) إعجاز سورة الكوثر، للزمخشري، ص61.

(21) نهاية الإيجاز للرازي، ص26-27.